إشكاليات كتابة تاريخ جَبل عامل في العصر الوسيط

د . احمد حطيط

يقول المؤرخ محمد جابر آل صفا في كتابه «تاريخ جبل عامل»: «لا اكتم ان البحث في تاريخ جبل عامل، بوجه خاص، عسير جدا، وعمل شاق يكتنفه الغموض، ويحيط به الابهام، لقلة المستندات، وضياع الوثائق التي يرجع اليها الباحث لتحليل الحوادث واستنباط الادلة والبراهين...».

ننطلق من هذا المقتبس لنطرح التساؤلات التالية: لماذا بقي تاريخ جبل عامل الوسيط منسيا ومضيعا مع انه كان، ومنذ القدم، جزءا من منطقة استراتيجية هامة، واحد المعابر الحيوية لحركات الطامحين من الشرق (العراق) الى الجنوب الغربي (مصر) وبالعكس، وبعد ان تعززت هذه المنطقة مع الفتح العربي ـ الاسلامي، اختير جبل عامل كاحد مراكز المرابطة العسكرية والدينية لمساندة الحاميات القائمة في الثغور؟ واذا كان «للجبل» هكذا اهمية، فلماذا اهملته المصادر الاسلامية ولم يحظ في بطون صفحاتها ما يستحقه من تقدير؟ ثم لماذا لم يعن علماؤه، على كثرتهم، بكفاية تاريخية، بالرغم من كثافة المؤلفات التي اتحفونا بها في مجالات عدة، في الفقه والفلسفة واللغة والادب والرياضة..؟

اننا، في اطار هذه المداخلة، سنحاول، بقدر ما يسمح به الوقت المخصص لها، ان نقدم مقاربة تاريخية لهذه التساؤلات، علنا نوفق في القاء الضوء على اشكاليات كتابة تاريخ جبل عامل في العصر الوسيط!

من الثابت ان علم التاريخ عند العرب المسلمين قد ارتبط، منذ نشاته بالعلوم الدينية، وعني بتدوين السيرة، سيرة الرسول (ص)، من جوانبها الدينية والسياسية، وقد سُمي هذا الفرع من التاريخ: مغازي الرسول او المغازي، كما اهتم المؤرخون بالانساب والطبقات وباخبار الفتوح (كالواقدي والبلاذري وابن سعد)

اما الكتابة في التواريخ العامة، فقد ظهرت منذ منتصف القرن الثالث الهجري، وهي قسمان:

(١) الكتب الحولية، وهي التي يرد فيها ذكر الحوادث حسب تعاقب السنين، واول من صنف في هذا المجال الهيثم بن عدي (ت ٢٠٧ هـ) ، ثم تبعه الاخرون كالطبري ومسكويه وابن الاثير.

(٢) تاريخ الدول والملوك، او تاريخ السلالات الحاكمة، التي تساق فيها الحوادث مساق القصة المنسقة على العهود. وقد صنف على هذا النمط العديد من المؤرخين كابن واصل وابو شامة وابن شداد.

والملفت ان الغالبية العظمى من كتب التاريخ العام، منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، قد وضعت على ايدي كبار موظفي الدولة، مما جعل التدوين التاريخي يتصف بخصائص عدة، منها:

(١) اهتمام المؤرخ بمعالجة الحوادث ذات الصلة بالكيان السياسي الذي يعيش في كنفه، دون معالجة الحوادث التي تجري في مناطق بعيدة عنه، واعتماده، اساسا، على الوثائق الرسمية والصلات الشخصية، وما يدور بين كبار موظفي الدولة من احاديث، وما يتصل بمسامعهم من اخبار.

(٢) اتصفت كتب بعض المؤرخين بالتحيز لدعم وجهة نظر الدولة التي يؤرخون لها والحاكم الذي يتعاطفون معه او يمالئونه ، والنيل من خصومه، كما اقتصرت كتب الحوليات على ذكر ما يفعله السلطان او الامير، وما تليق بمقامه ـ متعامية عن كل ما يسيء اليه، لذلك اهمل المؤرخون اخبار المناطق النائية البعيدة عن مركز القرار، واسقطوا من حسباتهم كل ما يتعلق بالمسائل الاجتماعية والدينية، الا فيما ندر.

ويضاف الى ذلك، ان الاحداث الكبار التي عصفت بالمنطقة العربية، وخاصة في القرن السادس الهجري، حيث ظهرت قوتان عظيمتان، تحدتا سيادة الخلافة والاسلام، وطمحتا الى تقويض الحضارة العربية الاسلامية، وهما الصليبيون القادمون من اوروبا، وجحافل المغول الزاحفة من سهوب تركستان، فنجحت غزوات الصليبيين في تحقيق احلام هؤلاء في السيطرة على بلاد المشرق العربي والتنعم بخيراته، وبسطت هيمنة الغرب الاوروبي على منطقة شاسعة من بلاد الشام، مستغلة حالة التشتت والضياع التي كانت تعاني منها الديار الشامية والمصرية على حد سواء.

كما نتج عن العمليات العسكرية المتلاحقة التي قام بها المغول تدمير لم يعهد له مثيل في التاريخ الوسيط، اذ احدثت هذه العمليات، او كادت ان تحدث، لما رافقها من خراب ودمار، تغييرا نوعيا في تاريخ وحضارة العالم الاسلامي في القرون الوسطى، فاسقطت بغداد ، عاصمة الخلافة الاسلامية ، وجميع الحواضر الشامية الداخلية كحلب ودمشق، وبدا الاسلام في غربي اسيا وكانه على شفير الهاوية.

لهذه الاعتبارات جميعا، جذبت مراكز السلطة والاحداث المصيرية المؤرخين المسلمين على حساب تاريخ المناطق والاطراف التي ظلت بعيدة عن دائرة الضوء، ومنها تاريخ جبل عامل.

ولكن، اذا سلمنا جدلا بايجاد العذر لمؤرخي العصور الاسلامية الوسيطة، لعدم تاريخهم لجبل عامل، للاسباب السالفة الذكر، فاننا لا نبرر مطلقا لعلماء جبل عامل، الذين واكبوا المراحل الوسيطة من تاريخه، تقصيرهم في هذا المجال، خاصة اذا علمنا ان هذه المنطقة قد عرفت، ومنذ امد بعيد، حركة علمية ملفتة، تمثلت بانتشار دور العلم التي كانت مقصد الطلاب ورجال المعرفة من داخل البلاد الشامية وخارجها، وانها خرجت عددا لا يستهان به من اهل العلم وذوي الثقافة العالية في ميادين شتى، من فقه واصول وكلام ومنطق وفلسفة ولغة وادب، اضافة الى العلوم الاخرى، كالهيئة والطب والحساب والهندسة. وفي هذا الاطار نشير الى مدرستين عامليتين هامتين:

ـ مدرسة جزين التي انشاها الشهيد الاول، الشيخ شمس الدين محمد بن مكي عام ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م بعد ان اصبح امر الهجرة الى النجف الاشرف عسيرا، اثر استيلاء المغول على بغداد. وسرعان ما ذاع صيت هذه المدرسة، واصبحت محط الرحال لطلاب العلم، وتخرج منها عدد وافر من العلماء والفقهاء ونشروا العلم، وانشاوا المدارس في انحاء جبل عامل.

وبمقتل الشهيد الاول عام ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م بدمشق، اقفلت مدرسة جزين، وتفرق تلامذتها، فانتقلت الحركة العلمية ومعظم العلماء الى المدارس الاخرى، ومنها مدرسة جبع التي كان لها، بدءا من عهد الشهيد الثاني، الشيخ زين الدين الجبعي، صفحات مشرقة.

ولاخذ فكرة سريعة عن النهضة العلمية التي عرفها جبل عامل في العصر الوسيط نذكر عينة من العلماء والادباء العامليين الذين ظهروا في القرنين التاسع والعاشر الهجريين:

● الشيخ شمس الدين محمد بن مكي، الشهيد الاول، وقد اطلق عليه هذا الاسم لانه اول عالم قتل في سبيل الدين والعلم في جبل عامل.

له مؤلفات في مختلف العلوم والفنون انافت على المئة، كما ورد في سيرته. اهمها: «كتاب اللمعة الدمشقية» في الفقه الجعفري الذي قيل انه كتبه في سبعة ايام وهو في السجن، ويُعتبر الكتاب من امهات كتب التدريس في المذاهب.

● الشيخ ابراهيم بن علي الكفعمي (ت ٩٠٥ هـ) ، احد تلامذة مدرسة جزين.

صنف في ميادين عدة من فقه وتفسير وفلسفة وشعر وادب ، وبلغت مؤلفاته ثمانية واربعين مؤلفا: منها: «العين المبصرة» (رسالة في الفقه)، و «نهاية الارب في امثال العرب».

ـ الشيخ زين الدين بن علي العاملي ، الشهيد الثاني (ت ٩٦٥ هـ) ، تلميذ الشهيد الاول: قيل فيه انه «بلغ الغاية في العلوم الدينية والدنيوية». له تآليف كثيرة ابرزها: «كتاب المسالك في الفقه»، و «كتاب الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية» (في مجلدين)، و «منية المريد في اداب المفيد والمستفيد» (وهو كتاب في التربية والتعليم).

ـ الشيخ علي بن عبد العالي الميسي (ت ٩٣٣ هـ)، مؤسس مدرسة ميس، وهو المشهور بالمحقق الاول. من مؤلفاته: «الرسالة الميسية في الفقه».

ـ الشيخ المحقق علي بن عبد العالي الكركي (ت ٩٣٧ هـ)، مؤسس مدرسة كرك نوح في البقاع، وناشر التشيع في ايران، ورئيس العلماء في الدولة الصفوية. من كتبه: «جامع المقاصد في الفقه».

ـ الشيخ محمد بن علي بن خاتون العاملي، ولي رياسة الوزراء ونيابة السلطنة في الهند.

ـ الشيخ بهاء الدين العاملي الهمداني (ت ١٠٣١ هـ) ولي مشيخة الاسلام في اصفهان.

ما ذكرناه هو غيض من فيض مما اخرجه جبل عامل من العلماء الذين لم يقتصر نشاطهم على البلاد العاملية، بل تعداها الى ان شمل ارجاء واسعة من العالم الاسلامي، وخاصة في العراق وايران والهند وبلاد الافغان.

وعليه، يصبح التساؤل اكثر الحاحا حول غياب المصادر التاريخية العاملية ما قبل كعاب «امل الامل» للحر العاملي المتوفي عام ١١٠٤ هـ؟

يعزو بعض المؤرخين المحدثين السبب في فقدان المصادر التاريخية لجبل عامل الى توالي الفتن والحروب التي جرت على ارضه، كمثل العمليات العسكرية التي تعرض لها على يد الصليبيين، وما تلا ذلك في عصر المماليك الذين اعتمدوا سياسة التوحيد الديني على المذاهب الاربعة، واضطهاد غير القائلين بها من المسلمين، كما يردون السبب في ذلك الى مصادرة احمد باشا الجزار لمعظم الكتب والوثائق من المكتبات العاملية التي كانت تزخر بمختلف انواع الكتب، اثر اجتياحه للبلاد العاملية عام ١١٩٥ هـ / ١٧٨٠ م ، كمكتبة آل خاتون، ومكتبات آل الصغير وآل الامين وغيرهم من العائلات المشهود لها بالعلم والمعرفة ، وقيل ان الجزار نقل محتويات هذه المكتبات على ظهور الجمال الى عكا حيث وزع معظمها على الافران التي ظلت توقد من هذه الكتب لايام عدة.

واذا ما وافقنا هؤلاء المؤرخين بان العمليات العسكرية ، وتحديداً حادثة الجزار، قد ادت الى فقدان القسم الأكبر من التراث العاملي، فكيف يفسرون وصول العديد من المؤلفات العاملية الوسيطة الينا، باستثناء المصنفات التاريخية؟ واذا اعتبرنا ان علماء جبل عامل وادباءه المقيمين قد تهاونوا وغضوا النظر عن كتابة تاريخهم خوفاً من الاضطهاد والارهاب الذي مورس في حق العامليين في عصري الايوبيين والمماليك خاصة، مما ادى الى انكفاء الشيعة، واضطرارهم الى اعتماد التقية والتظاهر باعتناق المذهب الشافعي، طيلة القرن التاسع الهجري، فلماذا قصر علماؤه المهاجرون في هذا المجال، لا سيما وانهم في بلاد المهجر، قد وضعوا العديد من المؤلفات، مع الاشارة الى ان بعض هؤلاء العلماء قد تبوا، المراكز السامية في تلك البلاد، كما سبق واشرنا؟.

لذا، تتزاحم الاشكالات حول كتابة التاريخ الوسيط لجبل عامل، ويفترض ذلك عملاً وجهداً كبيرين لسد هذه الثغرة، لا سيما وان شتات الأخبار التي وردت في المصادر الاسلامية (ابن جبير، وابن كثير، والمقريزي، وابن تغري بردي...) قد تضمنت افتراءات عديدة وخطرة في حق العامليين، كاتهامهم بالتواطؤ مع العدو الخارجي (الفرنج) ضد السلطة الاسلامية القائمة والتي كانوا على خلاف مذهبي معها.

والمؤسف ان بعض المحدثين، الذين كتبوا عن تاريخ جبل عامل، قد ساهم، عن قصد او دون قصد، في تاكيد هذه الافتراءات والتهم سواء باعتمادهم على ما جاء في الروايات الواردة في المصادر التاريخية وكانها حقائق مجردة غير قابلة للشك او للنقد، ام في معرض «تبريرهم» لتعاون العامليين مع الفرنج، متناسين المقاومة الصلبة التي واجهت الفرنج في صور وصيدا وغيرهما من المناطق العاملية، ولجوء العامليين الى ارسال النجدات خفية الى صور ابان حصارها عام ٥٠٥ هـ / ١١١١ م، في الوقت الذي كانوا يرزحون تحت نير الاحتلال الصليبي (كما جاء في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي).

وثمة اشكالية اخرى تتعلق بتسمية قسم من جبل عامل ببلاد بشارة، اذ تعددت الروايات التي يسوقها المؤرخون المتاخرون حول هذه التسمية ، الا انهم يتوافقون على ان النسبة هي لحسام الدين بشارة بن اسد الدين العاملي «من امراء صلاح الدين»، وان هذا الاخير كافاه باقطاعة خيط بانياس لمساعدته للسلطان في مجاهدة الفرنج (البهاء بن شداد. ابن قاضي شهبة وابن طولون: حوادث ٥٨٣ هـ). والثابت ان ابناء بشارة قد استمروا في حكم جبل عامل في العهدين الايوبي والملوكي، وذاع صيتهم خلال القرن التاسع الهجري، حيث تشير المصادر التاريخية (كالمقريزي وابن تغري بردي) الى انهم كانوا، في ذلك الوقت، مقدمي العشير في بلاد الشام، وتحديداً في نيابة صفد التي كانت تتبع لها ادارياً بلاد عاملة، وساهموا في رد الاعتداءات الصليبية على مدينة صور في عامي ٨٢٨ هـ و ٨٥٥ هـ ، كما لعبوا دوراً بارزاً في الصراعات الدامية التي نشبت بين كبار امراء المماليك في بلاد الشام في السنوات ٨١١ هـ، ٨٢٢ هـ ، و ٨٢٤ هـ.

وهناك اضطراب في تحديد الانتماء المذهبي لحسام الدين بشارة الذي يرجح صاحب «خطط جبل عامل» ان يكون من اهل تلك البلاد، واحد ابرز اعيانها. فهل كان حسام الدين المذكور وابناؤه مسلمين متسننين. ام انهم كانوا على المعتقد المذهبي للغالبية العظمى من سكان جبل عامل؟.

فمع تسليمنا ان الناصر صلاح الدين قد اضطهد المعارضة الاسلامية، وتحديداً الاسماعيلية والامامية الاثني عشرية، وهذا واقع تاريخي، الا ان السياسة التي اعتمدها السلطان مع المسلمين غير القائلين بالمذاهب الاربعة لم تكن ثابتة، بدليل ان الملك الناصر، وفي فترات معينة، وتبعاً لما تقتضيه مصالح الدولة، كان على وفاق مع الاسماعيلية، وتعاون معهم في قتال الفرنج، كما كان الاسماعيليون، وفي مراحل اخرى، من اشد المعارضين للسلطان، حتى انهم حاولوا اغتياله لمرات عدة. فلماذا نستبعد ان يكون حسام الدين بشارة اميراً عاملياً شيعياً، وننفي، بالتالي، امكانية مساهمة العامليين، وهم عرب اقحاح، في شرف الجهاد ضد الفرنجة الطامحين، ليس فقط للاستيلاء على البلاد، بل قادوا حرباً دينية شعواء، ضد العرب المسلمين وانجازاتهم الحضارية؟.

واخيراً وليس آخراً، اذا استبعدنا كلياً ما تضمنته تساؤلاتنا حول المعتقد الديني للامير بشارة، لاعتبارات يرجعها بعضهم الى اجواء التعصب المذهبي التي سادت ايام صلاح الدين، فكيف يمكن ان ينظر السلطان وخلفاؤه بعين الرضى الى سياسة التسامح التي اعتمدها عامله حسام الدين بشارة وابناؤه من بعده مع رعاياه العامليين، وهم على خلاف مع مذهب الدولة الرسمي؟ هذا اذا تجاوزنا ما يردده بعض المؤرخين المحدثين من ان الامير بشارة قد اعتنق، بعد فوزه باقطاعه، مذهب العامليين الديني، وهو امر مستغرب بلا ريب!.

تلك نماذج من الاشكالات التي تعترض كتابة تاريخ جبل عامل في العصر الوسيط، وهي مسائل تتطلب اعادة النظر فيها، كي لا نسيء الى تاريخ هذه المنطقة المناضلة.

لذلك، تصبح الضرورة اكثر الحاحاً للتصدي لاعادة كتابة تاريخ جبل عامل، وخاصة في المرحلة الوسيطة منه، وفي هذا الاطار نقترح ما يلي:

١ ـ انشاء مركز ابحاث يعنى اساساً بجمع المخطوطات والوثائق العاملية الموجودة في المكتبات الخاصة ولدى الافراد، والسعي لتحقيقها وفق القواعد العلمية باشراف نخبة من المحققين، لتوفير الاصول الضرورية للدراسات العلمية حول جبل عامل.

٢ـ اصدار مجلة تراثية لاطلاع الباحثين والمهتمين على اخبار التراث العاملي وآخر مستجداته .

٣ ـ انشاء مكتبات عامة في المدن الرئيسة في جبل عامل لتسهيل السبل امام الباحثين واشاعة الاجواء الثقافية، وتنمية روح المطالعة لدى الناشئة.

٤ ـ اقامة النشاطات الثقافية المبرمجة من محاضرات وندوات ومناظرات ومؤتمرات لاطلاع الراي العام على حصيلة الأبحاث والدراسات المتعلقة بجبل عامل، مع التاكيد على ان الظروف الدقيقة التي يمر بها جبل عامل تتطلب اليوم اكثر من اي وقت مضى اعادة قراءة تاريخية قراءة نقدية تحرره من الاساطير والأوهام التي تعتريه، والابتعاد عن الافكار المسبقة الشيوع، واعتماد المناهج العلمية في كتابته، والاعتصام بحبل الموضوعية في الدراسة والتحليل.

وتبقى ملاحظة منهجية نختتم بها هذه المداخلة، وهي ان تاريخ لبنان الوسيط، وتاريخ اية منطقة لبنانية، ومنها تاريخ جبل عامل، لا يمكن فهمه الا من خلال تاريخ المشرق العربي عامة وتاريخ بلاد الشام خاصة، نظراً للتداخل الذي كان وما زال، قائماً بين ارجاء تلك البلاد، وهذا الأمر ينطبق بالطريقة نفسها على تواريخ البلدان الاخرى.

(الجامعة اللبنانية)